المطالعة

الدكتور نضال الصالح (١٩٥٧م)

وُلِدَ في مدينة حلب، وتخرّج في جامعتها حتّى نيله شهادةَ الدكتوراه في النقد الأدبيّ الحديث. صدر له أربعةَ عشرَ كتاباً في الإبداع القصصيّ والروائي والنقد الأدبي، منها: "مكابدات يقظان البوصيري" و"جمر الموتى" و"النزوع الأسطوري في الرواية العربيّة"، و"القصّة القصيرة في سورية".

١- كيف أثبتت الرواية العربية كفاياتها العالية
٢- ما أبرز ما ميز الرواية العربية طوال تاريخها؟ ما الذي جعل الرواية الجنس الأدبي الأسرع إلى جمهور القراء؟

قطعَتِ الرّوايةُ العربيَّةُ أشواطاً طويلة في طريق التأسيس والتأصيل لجنس أدبيّ عربي حديث، وحقّقت خلال ذلك إنجازاتٍ شديدةَ الغِنى والتنوّع، وأثبتَتْ كفايتَها العالية في تجديدِها لنفسِها دائماً، وفي مساءلتها لأدواتِها وتقنياتِها، وفي مغامراتِها الجماليّةِ التي مكّنتها، دائماً أيضاً، من إحداث توازٍ مستمرٍّ بين محاولات مبدعيها البحثَ عن كتابةٍ روائيّةٍ لها هُويّتُها الخاصّة بها، ومحاولات هؤلاء المبدعين أنفسِهم، بآنٍ، لمواكبةِ إنجازاتِ السَّردِ الرّوائيّ في الأجزاءِ الأخرى من الجغرافية الإبداعيَّة. ولعلّ أبرز ما ميّزها طوال تاريخها ليس مواكبتها لمختلف المدارس والتيّارات والاتجاهات والفلسفات الوافدة فحسب، بل تمرّدها أيضاً على الثابت والمستقرّ من القيم والتقاليد الجماليّة التي ما إن كانت تذعن لها لوقت حتّى كانت تبتكر بدائلَها المناسبة التي غالباً ما كانت تحمل بذور فنائها في داخلها، صائغةً بذلك سمة تكاد تكون وقفاً عليها من المشهد العالميّ، وإلى حدٍّ بدت معه ومن خلاله فعاليةً إبداعيّة

مفتوحة ومشرعة على احتمالات غير محدودة، ودالّة على قابليّاتها الكثيرة للهدم والبناء دائماً، وعلى امتلاكها ما يؤهّلها للتجدّد والتطوّر دائماً أيضاً. ولئن كانت هذه السمات جميعاً، وسواها، هي ما جعل تلك الرواية الجنس الأدبيّ الأثير إلى جمهور القرّاء، على الرغم من حمّى الإقصاء الذي مارسته، وما تزال، وسائل الاتّصال الحديثة لمختلف أشكال الكتابة، فإنّها هي أيضاً ما يؤشّر إلى أنّ هذه الرواية نفسها هي فنّ المستقبل بامتياز كما كانت الفنّ الإبداعي المميّز في النصف الثاني من القرن العشرين.

...٢...

تنجزُ الرّوايةُ العربيَّةُ مستقبلَها كما أنجزت ماضيها وراهنَها بمساءلتِها المستمرَّةِ لأدواتها وتقنياتها، وقبل ذلك للواقعِ الذي تصدر عنه وتتحرّكُ في مجاله. ولكي تحقّقَ الرّوايةُ العربيَّةُ ذلك لا بدَّ لها من أن توفّر لنفسها ركائزَ تنهضُ بها وعليها، ولعلَّ أبرز تلك الركائزِ، أو عواملِ تجديد الرّوايةِ العربيّة لنفسها ما يأتي:

٣- ما هي عوامل تجديد الرواية العربية وعي الروائيين العرب بالمناهج والنظريات الحديثة وغير ذلك.

عوامل تجديد الرواية العربية:

١. وعيُ الروائيّين العرب بالمناهج والنظريّات النقديّة الحديثة:

- إنَّ إجابات معظم الروائيّين العرب في حواراتهم وشهاداتهم لا تتضمّن في داخلها أيّة إشارات إلى حمولة معرفيّة واضحة بالمناهج والنظريّات النقديّة، وأحياناً بالمُنجَز النقديّ العربيّ نفسه، وإلى حدّ تبدو نصوص الكثير منهم معه بوصفها نتاجاً للمكّون الأوّل فحسب من المكوّنين الجدليَّين والمركزيَّين للإبداع: الموهبة، والثقافة، أي للموهبة وحدها التي عادة ما تعبّر عن نفسها في عمل إبداعيّ واحد ما يلبث أن يتناسل بهيئته الأولى في الأعمال اللّاحقة.

- فالمبدع الحقيقيّ هو ذاك الذي يدأب على تزويد نفسه بالمعرفة، والروائيّ المبدع خاصّة هو ذاك الذي تكون إنجازات النقد بالنسبة إليه كالحكمة إلى المؤمن، أنّى وجدها التقطها.

- إنّ الموهبة التي تكتفي بنفسها لا تعيد إنتاجها لأدواتها ووسائل تعبيرها وتقنياتها فحسب، بل تحكم أيضاً على نفسها بالعطالة التي تبدو نصوص الروائيّ معها كما لو أنّها نصّ واحد وقد تقنّع بعلامات لغويّة مختلفة. كلّما اتسعت ثقافة الروائي العربيّ بإنجازات النقد أطلقت الرواية العربيّة نفسها في فضاءات الإبداع، وتعدّدت، بفعل تلك الثقافة، احتمالاتُ المستقبل التي تنتظرها، والتي تجعل منها بآنٍ ابنة شرعيّة للمرحلة التاريخيّة الجماليّة التي تنتمي إليها.

ما أثارات على ثقافة الروائي العربي بإنجازات النقد

٢. سعة المخزون المعرفيّ بإنجازات الرواية العالميّة: ٤- ما أهمية توسعة المخزون المعرفي العربي بانجازات الرواية العالمية

لا يبدو مسوّغاً أن يكون البيت الروائيّ العربيّ موصد النوافذ أمام إنجازات الرواية العالميّة، أو أسير إنجازات سكّانه فحسب؛ فالرواية العربيّة التي أحدثت، في العقود الثلاثة الأخيرة خاصّة، تعديلاً في الذائقة الجمعيّة العربيّة التي ظلّ الشعر يتربّع على عرشها طوال أربعة عشر قرناً تقريباً فاستحقّت بذلك، وبسواه، صفة "ديوان العرب في القرن العشرين"، لم يكن ممكناً لها أن تحقّق ذلك لو لم تشرع نوافذها على إنجازات الرواية العالميّة، ولو لم تستثمر تلك الإنجازات استثماراً دالّاً على كفايتها العالميّة بل الكفاية العالية لمبدعيها، في امتصاص مختلف مغامرات الجنس الروائيّ أيّاً كان مصدر ذلك الجنس من جهة، وأيّاً كانت المرجعيّات الفكريّة والجماليّة لتلك المغامرات من جهة ثانية.

٣. التجريب: ٥- ما أهمية التجديد في تجديد الرواية العربية

نهض التجريب بدور مهمّ في تجديد الرواية العربيّة لنفسها، وبفضله استطاعت هذه الرواية تحقيق قفزات نوعيّة في سيرورتها الجماليّة، وعبّرت عن استجابات الجنس الروائيّ عامّة، أكثر من سواه من أشكال الإبداع الأخرى، لمختلف مغامرات الإبداع على مستوى التخييل أحياناً، وعلى مستوى الشكل أو البناء أحياناً ثانية، وعليهما معاً أحياناً ثالثة.

وإذا كانتِ الرّوايةُ العربيّة أنجزت ما أنجزت في حقل التّجريبِ وفي مجالهِ خاصّة، فإنّ هذا الحقلَ نفسَه هو ما يتيحُ لها إضافةَ المزيد إلى ما أنجزت، وهو أيضاً ما يعدّدُ احتمالاتِ المستقبلِ الذي ينتظرها، وما يمكّنُها من إبداعِ مدوّنتِها الخاصّة. وما يعزّز أهمّيّة التجريب ودوره في تجديد الرواية العربيّة أنّ العلامات الفارقة في تاريخها كانت روايات تجريبيّة، نأت بنفسها عن شرك التنميط الذي استسلم له سواها من الروايات، وعارضت الثابت بالمتحرّك، المُكوّن المُكوَّن، والنقل بالعقل.

٤. ازدهار الحركة النقديّة:

إنّ الإبداعَ شرطٌ لازدهار النّقد، كما أنّ النقدَ شرطٌ لازدهار الإبداع. وبهذا المعنى، فإنّ مستقبلَ الرّواية العربيّة وثيقُ الصّلةِ بمستقبل نقدِها، بل بمستقبلِ وعْيِ الرّوائيّ والناقد العربيّين بأنّ الإبداع والنقد فعاليّتان متكاملتان. ويمكن إجمالُ أسبابِ نهوضِ النّقد الرّوائيّ العربيّ بما يأتي:

٦- ما أسباب النهوض النقد الروائي العربي

١- إعادةُ النّظر بواقعِ الدّراسات العليا في الجامعات العربيّة.

٢- تحديدُ هوامشِ النّشر في الدوريّات الثقافيّة العربيّة.

٣- تحريرُ الممارسةِ النقديّة من أوهام التمجيد لأصواتٍ إبداعيّةٍ بعينها وتهميش سواها.

٤- تثبيتُ قيمٍ وتقاليدَ في المشهدِ النّقديّ.

٥- تأصيلُ النقد.

٥. استثمار وسائل الاتصال الحديثة:

٧- ما أهمية استثمار وسائل الاتصال الحديثة في تجديد الرواية العربية؟

إنّ وسائلَ الإعلامِ الجماهيريّة، الحديثةَ منها على نحو أدقّ ولاسيّما الشابكة (الإنترنت)، تمثّلُ، بالنّسبة إلى الرّواية العربيّة مدخلاً واسعاً إلى المستقبل، وتمكّنها من تحقيق إنجازاتٍ كثيرةٍ من أهمّها وصولُها إلى قطاعاتٍ واسعةٍ من القرّاء داخل الوطن العربي وخارجَه. وتفصحُ تلك الوسائلُ عن أهميّتها وقيمتها ودورها في هذا المجال من خلال المفارقة اللافتة للنظر بين حجم انتشار الكتاب وحجم مستعملي الشابكة.

٦. تفعيل الأنشطة المعنيّة بالإبداع الروائيّ:

٨- تتسم الأنشطة المعنية بالجنس الروائي بثلاث سمات مكانية وصفتها.

يتّسم الأغلبُ الأعمُّ من الأنشطةِ المعنيّة بالجنس الروائيّ العربيّ، على غير مستوى وفي غير مكان من الجغرافية العربيّة، بسماتٍ مركزيّةٍ ثلاث: الانتقائيّة، والاعتباطيّة، والوظيفيّة. ولئن كان من أبرز مظاهر السّمة الأولى إلحاحُ معظم الأوصياء على معظم تلك الأنشطة على تكريس المكرّسِ وتثبيته، وإقصاءِ سواه، فإنّ من أبرز مظاهر الثانية ضعفَ الإعداد الذي يسبق كثيراً من تلك الأنشطة وينظّمها وينهض بها على نحو علميّ دقيق تؤدّي معه ومن خلاله الأهدافَ المرجوّة منها، ولعلّ من أبرز مظاهر الثالثة غلبةَ الطابع الوظيفيّ على الكثير أيضاً من تلك الأنشطة التي غالباً ما يسعى المنظّمون لها إلى تنفيذ خططٍ وبرامجَ فحسب.

حقول التجديد:

٩- ما أهم موضوعات المنجز الروائي العربي؟

إذا كان لكلّ نصٍّ سرديّ مكوّنان مركزيّان: حكايةٌ وخطاب، أو حكاية وحبكة، أو متن ومبنىً، أو محتوىً وشكلٌ، أو ما تواتر من علامات لغويَّة أخرى في نظريَّات السَّردِ تُحيل عليهما، فإنّ ثمَّة حقلَين مركزيَّين أيضاً يمكن للرّواية العربيَّة أن تتحرَّك في مجالِهما مستقبلاً، هما:

١. الموضوعات:

المتتبّع للمُنجَزِ الروائيِّ العربيِّ يخلُص إلى أنَّ الروائيَّ العربيَّ لم يكد يدَعُ شيئاً من الموضوعات التي كان الواقع يثيرها حوله من هزائمَ ونكباتٍ، إلى أسئلةِ الذّات والهُويَّة، إلى تحوُّلات البنيةِ المجتمعيَّة العربيَّةِ وآثار تلك التحوُّلات في الوعْيِ على المُستوى الاجتماعيِّ، وسوى ذلك ممّا كان يعصِفُ بالواقع، ويتفاعلُ داخله.

وعلى الرغم من أنَّ الإبداعَ عامَّةً ليس بديلاً من شيءٍ آخرَ سواه، فإنّ ما يضطرمُ في قلبِ الرّاهن من تحوّلات، وما يضطرمُ في قلب هذه التحوّلات نفسِها من إشاراتٍ إلى أفكارٍ، وقيمٍ، وقوىً جديدةٍ، سيرغِمان التّعبيرَ الرّوائيَّ العربيَّ على الحفر عميقاً في الواقع، وعلى الالتفاتِ إلى الجزئيَّات والتفاصيلِ المكوِّنة له، ولا سيّما إذا ما أراد ترسيخَ نفسِهِ بوصفِهِ ضميرَ الجماعةِ في المستقبلِ كما كان ضميرَها في الماضي وكما هو في الراهن.

٢. التقنيات:

- قدّمتِ التَّجربةُ الرّوائيّةُ العربيَّةُ الكثيرَ من النّصوص الدالّةِ على وعْيِ الرّوائيّين العربِ بأنَّ الإبداعَ يعكسُ الواقع، ولا يحاكيه، بل يعيدُ بناءَه على نحوٍ فنّيٍّ، ويحوّلُه إلى واقع نصّيٍّ له قوانينُه الخاصَّةُ، وبأنَّ أهمّيَّةَ النَّصِّ لا تكمنُ فيما يقوله فحسب، بل في طرائقِ صوغِ هذا القولِ أيضاً.

- إنّ انتماءَ الرواية العربية إلى المستقبل رهنٌ بتثمير كتّابها للفنّي الجمالي، على أنّ فعالية التثمير تلك لا تعني استغراقاً في الشكل، أو فعاليّة تزيينيّة، بل فعاليّة عليها أن تمتلك في داخلها ما يعلّلها، أي ما يجعلها لصيقة بتلك الصورة التي جاءت عليها، وليس على صورة أخرى غيرها، وهي، بهذا المعنى، تشكيلٌ تتجاور قيم المعنى فيه مع قيم البناء.

- فالإبداع، أيّاً كان الجنس الذي ينتمي إليه، رسالة تمارس تأثيرها في المرسل إليه حينما تحسن اختيار وسائلها، وحينما تكون تلك الوسائل منبثقة من داخل الرسالة وليس من خارجها، أي حينما تكون معلّلة تماماً.